الثورة الفلسطينية وخروج المرأة عن مواقع الأنوثة التقليدية

في خط الأفعى

عندما تفجرت الثورة الفلسطينية ، كان من البديهي جدا أن تتخلخل مفاهيم اجتماعية كثيرة داخل المجتمع العربي، وخاصة في بلدان المواجهة – فقد كان للثورة المسلحة وجهها الاجتماعي الايجابي كنتيجة حتمية للعلاقة الجدلية التي تربط النضال السياسي بالنضال الاجتماعي ، ولعله قول مكرر ان اي تحرك سياسي يكون ثوريا بقدر ما يحققه من تحولات اجتماعية ايجابية ، ولعل ابرز هذه التحولات واكثرها ايجابية على الاطلاق هي ظاهرة انعتاق المرأة .

وصحيح ان تحرر المرأة الاجتماعي رهين بتحررها واستقلالها الاقتصادي مرتبطا بوعيها السياسي . لكن الثورات المسلحة تحرق للمرأة مراحل تحررها باختراقها الاسرة (اكثر المؤسسات الاجتماعية اعاقة لتحرر المرأة) حيث يصبح التحرر الاقتصادي تحصيل حاصل لاحق لتحررها الاجتماعي ، ثم تؤهلها – باستمرار التوعيه – الى امتلاك الوعي السياسي المتقدم الذي يؤهلها للحفاظ على حقوقها .. وهذا ما حصل في الجزائر ، فيتنام ، الصين ، اليمن الديمقراطية والثورة الفلسطينية وكافة حركات التحرر المسلحة .

والثورة الفلسطينية منذ انطلاقها استطاعت ان تخترق الاسرة – اكثر من فرد في كل عائلة ملتحق بقوات الثورة – وان تشحن الجو الاجتماعي والاسري بفيض غامر من الانتشاء والاحساس بالنصر والرغبة في تقديم المزيد من التضحيات ، وقد كان الجو مؤهلا لاستقبال اكثر الاراء تطرفا ما دامت في خدمة الثورة ، ومن خلال هذا الجو الخصب بعثت الفتاة الفلسطينية الى استحصال حقوقها الاجتماعية التي حجبت عنها – كأية فتاة عربية – فالتحقت بقوات الثورة ، وسافرت وغابت عن اسرتها اياما وشهورا وجرحت واستشهدت واعتقلت ، ومارست حقوقها الاجتماعية بانسيابية وتلقائية.

وقد كان للثورة الفلسطينية نفس الدور في نقل الفتاة العربية الى مرحلة الذروة في الرفض الاجتماعي الواعي ، ولكن ذلك اقتصر على حالات محدودة حققت في بلدها الاستقلال الاقتصادي واستطاعت من خلال وعي اجتماعي وسياسي معين ان تحدد مسيرتها مع الثورة .

وعدا العامل الوطني – خصوصية وضع الفلسطينية (كمواطنة) فلسطينية محتلة ارضها – فان اسباب توجه الفتاة الفلسطينية نحو المقاومة هي ذاتها اسباب توجه الفتاة العربية – ككل – . ما اردت قوله هو ان القهر الذي تعانيه المرأة العربية بشكل عام هو قهر اجتماعي بالدرجة الاولى ، حتى ان الاضطهاد السياسي يتمثل دائما بممارسات اجتماعية ويأخذ باستمرار شكل القهر الاجتماعي (كان يشدد الحصار على الفتاة اذا ما اعتقل اخوها او اذا ما احست العائلة ان لها توجهات سياسية معينة)

والمقاومة كانت – وما زالت – تعني بالنسبة للفتاة انطلاقا وتحررا اجتماعيا بشكل رئيسي كاساس متين نحو توجهات سياسية ثورية ، اذ لا ممارسات سياسية واعية وناضجة ومسؤولة دون حد أعلى من التحرر الاجتماعي اللازم والاساسي لانفتاح خصوصية وضع المرأة – كانثى – في مجتمع العلاقات الاقطاعية ، وتثبيت اساسياتها ، والارتقاء بوعيها السياسي الى الحد الذي تستطيع معه ان تكون عنصرا مقاتلا له مواصفاته التي تخوله حق الحصول على مكانه الطبيعي في خندق النضال ضد كل سلبيات واقعنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المرفوضة .

تفتقر مكتبة الثورة الفلسطينية وارشيف دراساتها الى الاحصاءات والدراسات العلمية الدقيقة والبحوث الاجتماعية التي تتناول وضع المرأة في الثورة الفلسطينية والتي تعطينا صورة واضحة عن تحرك الخط البياني لمكاسب المرأة وتحركها نحو المزيد من تثبيت حقوقها او تراجع هذا التحرك في اوقات الجزر والانسحاب .

ونجد انفسنا نتيجة هذا النقص الواضح الى الاهتداء بالحالات الفردية التي لا تشكل في الحقيقة مقياسا دقيقا نظرا لان الظروف الموضوعية التي اهلت لنضج هذه الحالات (ثقافيا وسياسيا واجتماعيا) هي ظروف استثنائية اذا ما قيست بظروف الاف النساء اللواتي شكلن في عز تصاعد الثورة قاعدة عريضة لانطلاقتها وعمودا اساسيا لتصاعدها في المخيمات والاحياء الفقيرة .

وهذه في الحقيقة ليست دراسة لمدى تأثير الثورة الفلسطينية على وضع المرأة الفلسطينية والعربية بقدر ماهي اشارة كان العامل المشجع على رسمها عمل ادبي اخذ بنظر الاعتبار او كان الاساس فيه تلك العلاقة التي كان قطباها الرئيسان المرأة والثورة .

« خط الافعى » رواية للاديبة ليلى عسيران، وقد كتب الكثير عن هذه الرواية وصنفت على اساس انها نموذج جديد للادب الثوري، ونظر البعض بوصفها باكورة للادب الثوري في المنطقة، اما انا فقد رأيت فيها الى جانب هذا البعد المتميز الواضح بعدا آخر .. هو قدرتها على تمثيل حياة المرأة الفلسطينية في قلب الثورة، وما تعطي للتجربة ابعادها الواضحة في هذا المجال كون المؤلف امرأة وامرأة واعية قادرة على استشفاف الابعاد القادمة للظاهرة القائمة.

والمرأة بالتأكيد اقدر على الكتابة عن المرأة من الرجل الاديب اذا اقررنا الحقيقة الموضوعية التي تقول ان مجمل تاريخ المرأة الممتد الاف السنوات من الاضطهاد والقهر رسم لشخصيتها جوانب وملامح خاصة تستطيع هي او «اخرى» تملك الحساسية والرهافة والوعي على كشفها ومسها وتسليط الضوء عليها ببساطة اكثر وبدقة اكبر .

احداث الرواية تدور او تلاحق فتاة فلسطينية « مريم » .. تغوص في اعماقها .. تسلط الضوء على انفعالاتها ، وتلاحق خطواتها بين القواعد والنهر والغرفة الصغيرة ، بخلفية هي مجموع معاناة مريم منذ وقعت عيناها على قلب امها وهو ينزف الدم من فم الجرح الذي فتحه الخنجر الغادر مرورا بالذكريات الفلسطينية عن البيت والجدة والحارة والمربع مختلطة بصوارخ « الايلولات » وخطوط الافاعي واحلام النهر ..

ولعل اهم ما استطعت ان المسه في هذا العمل الادبي الى جانب الكيفية التي استقبل بها الرجال المرأة المقاتلة في صفوفهم والمتاعب « الصغيرة » التي كانت تلاحق الفتاة وهي تقتحم عالم السلاح والثورة والموت .. اقول الى جانب هذه الاشارة فهناك علاقة المرأة والرجل في اطار الثورة ، ومدى ما استطاعت المرأة ان تتجاوزه من حدود العيب ، وما استطاعت ان ترتكز عليه من بعض « مشروعية » ان يكون لها الحق في اختيار « رجلها » وحريتها في تنظيم حدود هذه العلاقة بعيدا عن ضغط التقاليد والخوف من الوقوع في مصيدة « الخطيئة »

يولد حب « ابو الليل في قلب مريم في قمة توقها الى العبور فيصير ابو الليل الوجه الاخر لهاجس النهر ويمتزج الحلمان بتناغم وتنساب الوان الطيف على الوان الطيف الاخر فلا تستطيع ان تفرز توقها الاساسي « وتساءلت من احب اكثر هو ام الارض ؟ الارض ام انت يا ابا الليل .. ما الفرق » .. وهذا صحيح فقد كان للثورة دفئها الذي تمدد بين القلب والشغاف ، وغالبا ما كان يضيع الخط الوهمي الفاصل بين الحبيب والارض ، فكما اصبحت الارض حبيبة – اعز الاماني ان تستقبل وجوهنا في اختلاجها الاخيرة – كذلك اصبح الحبيب ارضا ووطنا وقضية.. والا فاين الحد الفاصل بين الارض ومن يلتحم بها نافثا روحه في ذرات ترابها .

لقد اجتاحت الثورة ادق تفاصيل عواطفنا وخلقت لنا قاموس حب جديد وعالم ممارسات ليست كممارسات الاخرين ، وهذه مريم تعشق النهر الدامي في عيني ابو الليل وتمنحه وجهها « العاري » الغارق في التفاصيل لتراها كلها، فعند خط الموت تذوب الاقنعة . ولنتر بعضنا بكل التفاصيل ، ونحن نبصر النهر في عمق العيون تكون قد آمنا، وتكون قد عرفنا بعضنا، وتكون قد قفزنا تحته « الجسر » الى ما وراء خط الافعى .

لاشك ان الرجل قد توقع الكثير من التحولات الايجابيه في شخصية المرأة ، ولا شك انه راقب بحذر وبهجة ، او ربما بانبهار توجهاتها الجديده ، لكن الاكيد ان المرأة كانت تنظر للرجل المقاتل نظرة انبهار مزدوجه ، انبهارها « بالرجل المقاتل » وانبهارها بالتوجه الجديد للرجل واحساسها المبهم بان اشياء كثيرة قد تقرب او يجب ان تقر مما يجعلها متحفزة دائما لتلقي مبادراته وردود فعله لتفسرها باتجاه رغبتها في لمس الصورة الجديدة للرجل الذي تريد. وغالبا ما كانت تخوض صراعا دائما ضد نظرة الرجل التقليديه لها او تلوعه بهذه النظرة ، فمريم مثلا تحس ان ابو الليل يتعمد جرحها حين يطلب منها المساعده في احضار الطعام وغسل الصحون ، وتتساءل هل تريد ان توحي لي بانني « فتاة » لا تصلح الا للطبخ وغسل الصحون ، والحقيقه ان الفتاة الفلسطينية خاضت من خلال تجربتها كمقاتلة صراعا حقيقيا من اجل تثبيت موقعها خارج مواقع الانوثة التقليدية وكانت من خلال ذلك تجابه شراسة التجربة القاسية التي كان يضعها فيها الرجل لاختبار صلابتها في تجاوز مواقع انوثتها التقليديه الى جانب الارتدادات الصغيرة التي كانت تشد الرجل الى نظرته السابقة للمرأة و « العقاب » التي كان تقع فيها في طريقه الى الايمان بالمرأة رفيقة نضال لا تصنفها اختلاف الجنس ضمن اطار محدد لا تتجاوزه الى اطر نضال الرجل .

تعرض ليلى في « خط الافعى » الى حياة الفتاة في القواعد « وبالمناسبة فان ليلى خاضت تجربة الحياة في القواعد وعبور النهر فعلا » وتستعرض ادق التفاصيل التي تجابه الفتاة

في عالمها الجديد ، عالم السلاح والموت والمقاتلين ، فنجدها مثلا تكرر « انا الفتاة الوحيده بينهم » مره بانتشاء ومرة بثورة ومرة باحساس الاختناق واخرى ممزوجة بطعم النصر، وهي حقيقة ان الفتاة تظل تحس بوحدتها الى ان تستطيع ان تقهر جمود العلاقات التي كان سببه دائما الاحساس بغرابة وجود المرأة في عالم كان حتى ذلك الوقت عالم الرجل ،

لننظر الى « مريم » وهي تلج القاعدة وعالم المقاتلين ، انها تجابه اول الامر بتحفظ واضح وبسؤال تتراءى في العيون « كيف سنعاملها ؟ » وربما ادت جراحة السؤال احيانا الى ان يتمنى المقاتل لو لم يتعرض للتجربة و « يا ريتها لم تأتي » لكن الفتاة فرضت وجودها فما العمل ؟.. انهم مبدئيا يدللونها بما يتماشى وكونها «انثى» اولا و « مخلوقا ضعيفا » ثانيا (واخوتي حولي يتضاحكون علي ، وكالطفلة يرعونني ويخفر رجال قريتي يحبونني)!

لكن في الغالب ترفض الفتاة هذه المعاملة الخاصه ، بل وتغالي في اظهار قدرتها على ان تكون مثلهم ، واعتقد ان الفضل في ان المقاتلين كانوا ينتهون بالنظر الى الفتاة كمخلوق مساو لهم ، اقول ان الفضل في ذلك غالبا ما كان يعود لاصرار الفتاة على ان ينظر اليها كذلك ، وتنتهي الامور دائما بان تصبح الفتاة (رفيقا) ومستودعا لاسرار المقاتلين ، وعامل زهو لا يخفون اعتزازهم به في كل مناسبة ،

ومريم في « خط الافعى » لجأت الى حسم وضعها في القاعدة الى اسلوب اعتادته الفتاة الواعية في مثل هذه الحاله ، رفضت ان تكون لها امتيازات خاصه ، حاولت ان تكسر كل قيود العيب التي تحد من قدرتها على ان تكون (عنصرا مقاتلا) فهي تناقش ادق المواضيع ، تستلم الحراسة، تصر على الاندماج بالمجموعة، واخيرا تتغلب على حياء الانثى فيها ، وتورد ليلى مثلا طريفا اعتقد انه واجه اغلب الفتيات في القواعد ، تحكي عن تجربتها حين اضطرت الى ان تسأل احد المقاتلين « اين الحمام ؟ » فاجابها بخبث « هل تريدين ان تأخذي دوشا ؟ » واعتقد انه اذا لم يكن في القاعده فتاة فعلى الاغلب تتردد الفتاة الجديدة كثيرا قبل ان تسأل رفيقها اين تستطيع ان تقضي حاجتها الطبيعيه، لكن مريم تتحدى « حياءها » وفي اليوم التالي تسأل نفس المقاتل السؤال ذاته وهي بذلك انما كانت تريد قهر حيائها اكثر مما كانت تهدف الى احراجه ، وتعترف « وشعرت انه بالفعل متحرر اكثر مني .. شعرت انهم كانوا طبيعيون اكثر مني »

ولا شك ان الانتقالة الفجائية للفتاة من حالة انعدام الوزن الى حالة اكتشاف الوزن في مجال الحقوق الاجتماعية يجعل ارتباكها من التفاصيل الصغيرة هذه امرا طبيعيا جدا ،

فالرجل كان بالنسبة اليها سلطة قهر واضطهاد كاب واخ ، واملا بالنجاة كزوج ، وحبيبه امل مريره عندما تكتشف ان طوق النجاة الذي كانت تأمله عاد فاستلم زمام سلطة القهر وهذه المرة الى الابد ، فكيف ستتعامل معه بعد ان اصبح رفيقا تقف معه في خطوة المساواة نحو الموت – الحقيقة المطلقة – لا شك انها ستفكر مثل « مريم » بكثير من التفاصيل الصغيرة في حياتها معه ، كيف ستنام مع خمسة شبان في مغارة ، هل ستقلب في نومها بحيث يجدونها في وضع غير محتشم دون ان تدري ، هل « ستشخر » وتتعبها هل سيفهمهم ، وهل من الافضل ان تنكمش ام لا ظهر من الاسترخاء ، »

لكن مريم تحسم ترددها فتتساءل : « ولكن لماذا لا اخجل ان اكل وان ادخن ، او ان اتساءل عن الخوف الموت ، ثم احجل ان انول ؟ واخجل ان انام ؟ السنا معا انسانا واحدا ؟ ربما حريتي تبدأ من هنا ، من عند عيب جدتي ودنياها ، فهل كنت ارتبك وانا اغفو في حضن امي ؟ .. »

لقد اشبعت الثوره بنقاءها اعماقنا نقاء ، ودفعت بنا الى النضال الدائم من اجل الحفاظ على نقاء علاقاتنا والتسامي بها والخروج معها عن حدود « العيب » التقليدية ، لكن العيب لم يكن فقط في القاعده وبين المقاتلين ، فهو يرقص وينتشر اكثر في العلاقات الحميمة التي يرتبط بمن نحب ، وقد قدمت ليلى في خط الافعى تجاوزات اجابية متقدمة لمنطق العيب من خلال علاقة « مريم » بـ « ابو الليل »

وتعي ليلى بان العيب هو خط الافعى ، والحب هو اكثر ممارساتنا احتياجا لمفهوم العيب ، فرغم انا اناس نحيى في عكس اتجاه السر ، فقد ظل الحب هو المفهوم الوحيد الذي ظل يتعثر منعزلا بين جدران الماضي).

لكن (مريم) وهي تعي هذه الحقيقه لا تدع العيب يكبل قدرتها على العطاء وعلى التعبير عن انفعالاتها ، وفي لحظة وداعها لابي الليل قبل نزوله في دورية مقاتلة « وتلمح البصر كاب اعانته ، وتشتاق بودمان شفيه ، وذقت طعم الارض فيهما، ذقت طعم الموت والحب والشوق والنيل والخوف في لعاب الارض وفي دمه » لكنها تحس بالاختناق بخوفها وتوددها، تريد ان تحكي، ان تقهر العيب بصدقها « هل من العيب ان اقبل الارض في شفاهي لابي الليل » .

لكنها رغم حبها لابي الليل يظل هذا الحب جانبا مميتا، ويظل وجوه المقاتلين تمتزج بالارض ورؤيا النهر ، ويظل غياب كل واحد منهم يأخذ حجمه الكبير في حياتها ، ولا يلهيها حبها عن ان تحب الاخرين بنفس العمق ، فهي ترى ابو الليل من خلال كل المقاتلين، وترى كل المقاتلين في عينيه ، وكان شوقها له يذوب احيانا الى حد التلاشي في شوقها الدائم للعبور وفي نضالها اليومي لاثبات وجودها في قلب القاعدة، كما ان وعيها الناضج للقضية وملابساتها ومشكلات الثورة يجعلها قادرة على شحن لحظاتها فلا تتوه في لجج شوقها لرجلها ، ولا تشل لوعتها قدرتها على العمل ، فلا انتظار موحش ، ولا ترقب بعض الساعات ، فالشوق يعيش في تلك الساعات التي تسبق فراغا من ساعات العمل الطويلة ، وربما انحجب يوما اشواقها في وجه ابي الليل دموعا ولكن هذا هو شوقها الذي يتفجر كل يوم غضبا من اجل العبور ، فهما قد تواعدا على اللقاء وراء خط الافعى .. على الارض ، وهذا الوعد يجعل للحظات طعم اليقين ،

ولعل اكثر تجاوزات «مريم» للعيب هي حين قالت لابي الليل ببساطة

– ابو الليل – انا احبك !

صحيح انها اجفلت ، وهبط عليها العيب فجأة فتساءلت كيف نسيته ، لكنها تعود فتقهره وتسأل ابو الليل مرة اخرى :

– ابو الليل .. لماذا لا تقول انك تحبني ،

ولا بد ان اكرر ان الاشارة الى « خط الافعى » هنا ليس تقييما لعمل ادبي بقدر ما هو عرض لاشارة تحمل الكثير من الوقائع عن حياة الفتاة في اطار الثورة الفلسطينية ، والصعوبات التي كانت تواجهها بسبب من كونها « امرأة » ونضالها من اجل قهر هذه الصعوبات وتثبيت موقعها خارج مواقع الانوثة التقليدية باتجاه المواقع المشتركة مع الرجل .

نازك

على مسرح سينما راديو – برج البراجنة

يقدم النادي الثقافي الاجتماعي – فريق العوده – معسكر برج البراجنة

مسرحية

"فلسطين والقدر"

وذلك يوم الخميس الواقع في ٨ شباط ١٩٧٣ الساعة التاسعة مساء

تباع البطاقات في النادي ومع الاعضاء وعلى باب السينما ليلة الحفلة

اوتار العود تنشد الجالية اليمنية في بريطانيا إلى الوطن

بدعوة من سفارة جمهورية اليمن الديمقراطية يتابع فنانان من اليمن جولة فنية لهما على مختلف تجمعات الجالية في انحاء بريطانيا ، والفنانان هما فيصل العلوي المغني الشعبي المعروف صاحب العود العذب الاوتار ، ورفيقه ضارب الايقاع فضل ميرزا .

وقد تسنى لاحد الرفاق في اسرة «الهدف» ان يحضر حفلتين من الحفلات التي يقيمانها في بريطانيا ويعود ريعها لانشاء مزرعة تعاونية في اليمن الديمقراطية ، وقد عبر الرفيق عن شعوره امام هذا اللقاء العاطفي بين العمال المغتربين وبين فنهم الوطني الاصيل ، بقوله :

كانوا يأتون من مئات المصانع ، من خلف افران الحديد ومقالع الفحم .. وجوه سمراء كالحديد والفحم .. لكنهم كانوا ارق من النسيم وهم يشدون الى الاوتار التي حملت لهم روح الوطن وعواطفه ..

وترقرق الفرح كالدمع .. نما يشبه الانفجار ، عندما بدأ الفنان فيصل العلوي يغني الوحدة اليمنية .. اغنية شعبية بسيطة وجميلة من كلمات حلاق هو عبد الحليم حسين عمار ، والحان الفنان نفسه .

تقول الاغنية :

يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن
عود يا غايب يا ابن اليمن
تمت الوحدة بشطري اليمن

• • •

عود ساهم في المصانع والحقول
ما اظن البعد عن ارضك يطول
ثورتك قامت لتتحدى المحن
يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن

• • •

ثورة اكتوبر وسبتمبر بنت
بالاماني مجد عزك واثبتت
وحدة الشطرين يا ابن اليمن
يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن

• • •

عود واجن خير ارضك والربيع
عودتك للارض فرحه للجميع
يشهد التاريخ عنا والزمن
يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن

• • •

عندنا الفلاح البت همه
عاد اسموا يوم قامت ثورته
ثورة الكادح بصنعا وعدن
يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن

• • •

سوف نفدي ارضنا مالا وروح
في سبيل المجد شعبي في طموح
قد وهبنا الروح وادينا الثمن
يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن

• • •

ليه تتغرب باسم الجاليه
ورايتك حره ترفرف عاليه
مجد ارضي تاج راسي والبدن
يا مهاجر عود الى ارض الوطن
تمت الوحدة بشطري اليمن

الفنان فيصل العلوي والى يمينه ضارب الايقاع فضل ميرزا